"جبل نفوسة وعلماؤه في عيون مؤلّفي سير الإباضيّة وطبقاتها: الشّماخي "أنموذجا"

د. حنان الطرابلسي
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس – تونس
trabelsihanen26@gmail.com
+216) 97067409

الملخّص:

يمثل جبل نفوسة المجال الجغرافي الأوّل الذي احتضن المذهب الإباضي منذ بدايات انتشاره في بلاد المغرب، وقد ترجمت كتب السير الإباضية وطبقاتها لعلماء نفوسة وبيّنت قيمة هذا المكان وفضله في استمرار المذهب وشيوعه وحفاظ معتنقيه على مبادئه.

بناء على ذلك اخترنا من بين كتب السير الإباضية وطبقاتها المغربية "كتاب السير" لأبي العباس أحمد بن سعيد الشماخي.

فلم يكن جبل نفوسة مجرّد مجال جغرافي اعتنق أهله المذهب الإباضي وبقي في حالة تبعيّة إلى حدود القرن العاشر للهجرة/16م لمراكز أخرى مثل القيروان وتيهرت وجربة ...، بل كان مجالا مؤثّرا، احتضن قبيلة نفوسة التي قال عنها عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم "إنما قام هذا الدين بسيوف نفوسة وأموال مزاتة"، فهو مجال أثّر بعلمائه ومشايخه في تاريخ الإباضية تأثيرا بالغا حدّد ملامح هذا المذهب خارج الجبل مثل جزيرة جربة التي احتضنت مشايخ وعلماء نفوسيين كان لهم فضل امتداد المذهب ورسوخه كما كان الأمر مع أبي مسور وأسرته خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة (10 و11 للميلاد).

وقد استأنسنا بالمنهج التداولي لتحليل الخطاب عند الشّماخي في سيره وهو يعود في تراجمه إلى معقله جبل نفوسة فيشيد بعلمائه ومشايخه بعد سقوط الدولة الرّستمية لنتحوّل إلى مجال جغرافيّ جديد وأرض أخرى تتأسّس معها عصبيات جديدة.

وهو ما تأكّد لنا، واعتمادا على المنهج التاريخي، بأنّ جبل نفوسة كان ذراع المذهب الإباضي وخزّانه البشري منذ ظهوره في بلاد المغرب إلى حدود القرن العاشر للهجرة/16م تاريخ انتهاء الشماخي من مؤلّفه؟

الكلمات المفتاحيّة: جبل نفوسة– الإباضية– علماء جبل نفوسة– "كتاب السير" لأبي العباس الشماخي– أبو مسور وأسرته.

Abstract
Gebel Naffūsa represents the first geographical region that has embraced the Ibādi doctrine since the beginning of its spread out in the Maghreb. The Ibādi biographical books and their chronicles have translated for the scholars of Naffūsa and demonstrated the value of this place and its preference for the continuation of the doctrine, its popularity and the preservation of its adherents. Accordingly, we have chosen from among the books of Ibādi biography and their Maghreb chronicles "Kitāb as-aiyar" (The Book of biography) written by Abū Ahmed ibn Said Al-Shammākhi.
Gebel Naffūsa was not just a geographical area which dwellers converted to the Ibādi doctrine and remained in dependence on the tenth century hegira/16th C to other centres such as Kairouan, Tāhirt and Djerba..., it was an influential area, embracing the Naffūsa tribe that made Abd Alwahāb Ibnu Rustum say "This religion has made profound by swords of Naffūsa and wealth of Mazata", an area that had a profound impact on the Ibādi history and has defined this doctrine outside the mountain, such as the island of Djerba, which embraced Ibadi Sheikhs and scholars who favoured the extension and entrenchment of the doctrine, as was the case with a Abī Masūr and his family during the 4th and 5th centuries of H/10th and 11th C.BC
Discourse mechanisms used by Al-Shammākhi referring back to his homeland Gebel Naffūsa and paid tribute to his scholars and Sheikhs after the collapse of the Rustumid Imamate to become a new geographical field and another land with which new tribal ideology was established.
So that, Gebel Naffūsa represented the arm of the Ibadi doctrine and its human resource from its emergence in the Maghreb to the 10th century H/ 16th C the completion date of his work.
Keywords: Jebel Naffūsa - Ibādi - the scholars of Naffūsa - "The Book of biography" by Abū Ahmed ibn Said Al-Shammākhi - Abī Masūr and his family

المقدّمة:

إنّ الجبال فضاءات لها حضورها البارز في الثقافات الشرقية والغربيّة، فقد وقف نيتشه عند ظاهرة الجبل عندما غادر زاردشت وهو في الثلاثين من عمره موطنه ومضى إلى الجبل "هناك استطاع أن ينعم بعقله ووحدته"[1]، وفي القرآن الكريم دعا الله إلى التأمّل في الجبال وعظمتها والتدبّر في خلقها وقداستها، فوردت في أثر من أربعين موضعا في القرآن الكريم، فالجبال سجدت للّه تعالى وسبّحت مع داود عليه السلام في قول الله تعالى ﴿**وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ [2] كما ذكرها القرآن في قصّة موسى عليه السلام﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا**

(1) نيتشه (فريديريك): هكذا تكلّم زرادشت: كتاب للجميع ولغير أحد، ترجمه عن الألمانية علي مصباح، منشورات الجمل، كولونيا، ط1، 2007، ص35.

(2) الأنبياء، 79.

أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3]، واقترنت شعائر الحج بالجبال مثل الجبلين "الصفا والمروة" و"جبل عرفات"، فضلا عن دور جبل النور الذي يحتوي على غار حراء، وجبل ثور الذي انطلقت منه الهجرة النبوية، وجبل أحد الذي وقعت فيه معركة أحد الشهيرة، وجبل ورقان الذي كلّم منه الله تعالى نبيّه موسى عليه السلام. فللجبال شأن كبير في العقائد السماوية وهي ملاذ للأنبياء والرّسل ما جعلها فضاءات مقدّسة تحظى بإجلال معتنقي هذه الديانات، كما كانت الجبال في بلاد المغرب مجالات جغرافية توفّر الحماية لسكانه من الأمازيغ الذين يميلون إلى النمط الرعوي الترحالي، فتعاملوا مع الجبال بتضاريسها الوعرة باعتبارها ربوعا صانعة لتاريخهم المجيد عندما أحكموا السيطرة على شعاب الجبال "فمدّوا المسالك وحفروا الآبار واستصلحوا السفوح وهيئوا المغارات"[4]، والإباضيّة لم تخرج عن الذهنية التي تحرّك الجماعات العقدية في بلاد المغرب، فجمعت بين التركيبة المجتمعية البربرية من جهة والمذهب الذي لوحق معتنقوه من قبل السلط التي حكمت المنطقة منذ القرن الأوّل للهجرة تاريخ دخوله بلاد المغرب على يد سلمة بن سعد الحضرمي، ما جعل للجبال حضور بارز في تاريخ الإباضية، فاتصلت بجبل "سوفجج" أحداث تاريخيّة قبل قيام الدولة الرستمية في تيهرت[5]، فهو الجبل الذي احتمى به عبد الرحمان بن رستم من ملاحقة ابن الأشعث، وفي هذا السياق يقول الشماخي "وخرج عبد الرحمان بن رستم، وما معه إلا ابنه عبد الوهاب وغلام له، (...) حتى بلغوا بالمغرب سوفجج، جبل منيع." [6]

كما سكن الإباضية من قبائل لواتة وزواغة جبل دمّر وهو جبل في الجنوب الشرقي من البلاد التونسية، يقع بين جبل مطماطة وجبل نفوسة [7]، قال عنه الشماخي متحدّثا عن عبد الوهابين عبد الرحمان بن رستم: "فلمّا تمكّن من الخلافة، وانقطعت مادّة الفساد والفتنة، وهدأت الأوطان، أراد الحجّ، فارتحل حتى نزل جبل دمّر، وله مسجد مشهور بمسجد عبد الوهاب"[8].

(3) الأعراف، 143.

(4) الفهري (عبد الحميد): *"الجبل في جغرافيّة المقدّس والمدنّس"*، أعمال الندوة الدوليّة (4-5-6 مارس 2004)، المجال وهوية ببلاد المغرب، جمع وتقديم عبد الواحد المكني، جامعة صفاقس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، قسم التاريخ، الندوة الدولية 4، 2004، ص 54.

(5) بوشامة (أحمد) وابن علي (طاهر): *"جبل سوفجج بين النصوص المصدرية الإباضيّة والمعطيات الميدانية: قراءة تاريخي-طوبونيمية"*، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، مجلد 15، العدد 2 (2022)، صص 687-704.

(6) الشماخي (أبو العبّاس أحمد بن أبي عثمان سعيد بن عبد الواحد): كتاب السّير، (تحقيق محمد حسن)، ليبيا، دار المدار الإسلامي، 2009، ج 2، ص257.

(7) المصدر نفسه، ج 3، ص 849.

(8) م.ن ج 2، صص 286-287.

يعتبر جبل نفوسة السلسلة الجبلية الثالثة التي لعبت دورا مهمّا في تاريخ إباضية بلاد المغرب وجعلت لعلمائه ومشايخه الريادة في نماء المذهب الإباضي وحفاظه على استمراره حسب ما وثّقته كتب السير الإباضية وطبقاتها على مدى عشرة قرون (من القرن الاوّل إلى القرن العاشر للهجرة (من 7 إلى 16 للميلاد))، وهو ما سنعمل على إبرازه من خلال هذه الورقة العلمية التي وسمناها بـ "جبل نفوسة وعلماؤه في عيون مؤلّفي سير الإباضيّة وطبقاتها: الشماخي أنموذجا".

ولا يعتبر اهتمامنا بكتاب "السير" للشمّاخي إقصاء لما احتوته بقية كتاب السّير الإباضية وطبقاتها، مثل "كتاب السيرة وأخبار الأئمة" لأبي زكرياء يحى بن أبي بكر الوارجلاّني، و"الجواهر المنتقاة" لأبي القاسم البرّادي، وكتاب "طبقات المشايخ بالمغرب" لأبي العبّاس الدرجيني، وكتاب "سير نفوسة" لمقرين البغطوري.

كما أنّنا استأنسنا في بحثنا بما ألّف حول جبل نفوسة في فترة العصر الوسيط مثل كتاب مسعود المزهودي "جبل نفوسة في العصر الوسيط"، فضلا عن المؤلفات التي اهتمت بالجبل ودوره في التاريخ الإسلامي، إلاّ أنّنا لاحظنا أنّ هذه المصنّفات لم تتبّع الإشارات الخطابية التي عبّر عنها الشّماخي في سيره والذي امتدّت تراجمه على مدى عشرة قرون، كما لم يقع إبراز التحوّل في منهج التأليف عند الشماخي خلال حكم الرّستميين ثمّ بعد سقوط دولتهم سنة 296هـ/909م.

كما أنّ هذه الدراسات لم تركّز على قيمة الجبل باعتباره العضد الذي شدّ المذهب الإباضي ورسّخ الوهبية في المناطق التي كان أغلب إباضيتها نكّارا وخلفيّة مثل جزيرة جربة. كما لم تؤكّد هذه الدراسات على أنّ جبل نفوسة كان المزوّد الأوّل والأساسي أوّلا لدولة الرستميين بالعلماء والمقاتلين المسكونين بالولاء المطلق للإباضيّة الوهبيّة، وثانيا لمدوّنة التراجم في كتاب "السير" لأبي العباس أحمد بن سعيد الشّماخي خاصة بعد سقوط الدولة الرستمية عاد من خلالها الشّماخي إلى أرضه وجذوره النفوسيّة.

فماهي الخصائص الجغرافية والبشرية لمنطقة جبل نفوسة؟

وكيف مثّل جبل نفوسة الخزان البشري والعضد الرئيسي للإباضية الوهبية في فترة حكم الرستميين في بلاد المغرب حسب كتاب السير للشماخي؟

وكيف مثلت الترجمة لمشايخ الإباضية النفوسيين داخل الجبل وخارجه علامة دالّة على تحوّل الخطاب عند الشماخي في سيره ورجوعا منه إلى جذوره الأولى بعد سقوط الدولة الرستمية وانهيار آخر أحلام إباضية بلاد المغرب في تأسيس دولة كالتي قامت في تيهرت؟

جبل نفوسة المجال المتحكّم في تاريخ الإباضيّة من خلال سيرها وطبقاتها

إنّ الدّارس لتاريخ الوجود الإباضي في بلاد المغرب انطلاقا من كتب السير الإباضيّة وطبقاتها لا يسعه إلا أن يقف عند جبل نفوسة باعتباره مجالا له خصائص جغرافية وتركيبة مجتمعية متميزة كان لها دور كبير في بقاء المذهب الإباضي في بلاد المغرب إلى اليوم واستمراره.

المعطيات الجغرافية لجبل نفوسة:

ينتمي جبل نفوسة إلى منطقة بلاد المغرب والأندلس باعتبارها المنطقة التي تمثّل متنفّسا للمجال الجغرافي العربي الإسلامي، وامتدادا لإقليم مصر، كما أنّها مثلت طوقا أمنيا فاصلا بين الجزيرة العربيّة والعراق وبلاد الشّام عن بلاد الرّوم [9]. يقول المقدسي عن كور المغرب: "إنّ أوّل كورة من قبل مصر برقة ثمّ إفريقيّة ثمّ تيهرت ثمّ سجلماسة ثمّ فاس ثمّ السّوس الأقصى ثمّ جزيرة صقليّة تقابل إفريقيّة والأندلس وراء البحر على أرض الرّوم"[10].

هذه القيمة الجغرافية جعلتها مطمح الفاتحين العرب، فقد اتجهت إليها أنظار عمرو بن العاص بعد استيلائه سنة 22 هـ/642 م على طرابلس وصبراتة، إذ تحوّلت قواته نحو جبل نفوسة وتحديدا مدينة شروس التي تعتبر من أكبر العواصم فيه. [11]

يقول مسعود مزهودي معرّفا الموقع الجغرافي لجبل نفوسة: "يمتدّ جبل نفوسة على شكل قوس أو هلال، وهو امتداد لجبال أطلس المعروفة بجبال "درن" في المغرب الأقصى من بحر الظلمات مرورا بكلّ من المغرب الأقصى والأوسط والأدنى إلى أن تصل وتلتحم بجبال "قماطة"[12].

من جهة أخرى اعتبر محمد حسن أنّ سلسلة الجبال هذه والتي على شكل هلال أو قوس هي امتداد لجبال مطماطة وجبال دمّر الموجودة في جنوب البلاد التونسية إلى أن تصل جبال نفوسة بقسميها الغربي (نالوت)

(9) دبيش (لطفي): الإنسان والمكان في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة: قراءة في نصوص الجغرافيّين والرّحّالين والمسالكيّين العرب إلى القرن الخامس الهجري، منشورات كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس: السلسلة 8، جامعة تونس، 2011، ص 510.

(10) المقدسي (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق دي خويه، طبعة ليدن، 1906، ص 216.

(11) ذنون طه (عبد الواحد): *"دور مدينة طرابلس في الفتح العربي الإسلامي في شمال إفريقيا"*، دور طرابلس الغرب في نشر الثقافة العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية، دت، (11-28)، ص 16

(12) المزهودي (مسعود): جبل نفوسة في العصر الإسلامي الوسيط (21-442هـ) (642-1053م)، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، ط1، 1431هـ/2010م، ص 29.

والشرقي (يفرن) ثم منها إلى جبال غريان [13]، ولعلّ ما سهّل "اتصال منطقة فزّان ببرقة بل وربّما بتونس والجزائر أكثر سهولة من اتصالها بطرابلس". [14]

مثّلت منطقة جبل نفوسة مثلها مثل المناطق الجبلية التي كانت حاضنة لأصحاب الرسالات السماوية والكرامات، جبالا حامية للمعارضات السياسية بفضل ما تتميّز به تضاريسها من وعورة تقيها كلّ المخاطر الوافدة.

الجبل خزان بشري للإباضية:

سمّي جبل نفوسة باسم القبيلة البربرية البترية "نفوسة" التي أعطت اسمها للجبل [15]، فتسمّى بها واشتهر بأهلها، وهي تعود إلى نفوس بن زحيك بن مادغيس الأبتر، يقول ابن خلدون: "وأمّا نفوس فهم بطن واحد تنسب إليه نفوسة كلّها. وكانوا من أوسع قبائل البربر فيهم شعوب كثيرة مثل بني زمور وبني مكسور وماطوسة. وكانت مواطن جمهورهم بجهات طرابلس وما إليها، وهناك الجبل المعروف بهم". [16] ويعتبر سكان جبل نفوسة من أكثر البربر تمسكا بأصولهم، ولم تختلط كثيرا دماؤهم بالفاتحين القادمين من الشرق، فضلا على حفاظ قسم كبير منهم باللغة الأمازيغية وبالمذهب الإباضي [17]. إلاّ أنّ أكثر ما يميّز القاعدة البشرية لمنطقة جبل نفوسة هي تمسّكها بالمذهب الإباضي وهو ما جعله يمثل أهمّ التجمّعات الإباضيّة في بلاد المغرب [18]، وقد أجمعت أغلب المؤلّفات التي اهتمت بتعريف الجبل على أنّه موطن الإباضيّة. فيقول ياقوت الحموي: "نفوسة بالفتح ثم الضم، والسكون، وسين مهملة: جبال في المغرب بعد إفريقيّة عالية نحو ثلاثة أميال في أقلّ من ذلك، وفيها منبران في مدينتين إحداهما سروس في وسط الجبل وبها خبز الشعير ألذّ من كلّ طعام، والأخرى يقال لها جادو من ناحية نفزاوة، وجميع أهل هذه الجبال شراة وهبيّة وإباضيّة متمرّدون عن طاعة السلاطين". [19] فهو يشكل أحد المراكز الرّوحية والسياسية للإمامة الإباضية بالغرب، والتي ظلّت وفيّة للمذهب الإباضي الوهبي

(13) الشمّاخي: السير، ج1، ص29.

(14) سعد زغلول (عبد الحميد): تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب)، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1979، ج1، ص 66.

(15) سعد زغلول (عبد الحميد): تاريخ المغرب العربي...، ج1، ص 93.

(16) ابن خلدون (عبد الرحمان): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، 1959، مج 6، القسم 1، ص 230.

(17) ديبوا (جون): جغرافيا جبل نفوسة: دراسة ميدانية في الجغرافيا الطبيعية والبشرية، ترجمة عبد الله ژارو، أعده للنشر محمد ؤمادي، منشورات مؤسسة توالت الثقافية سلسلة الأبحاث التاريخية، الرباط، 2006، ص38.

(18) ليفيتسكي (تادايوش): دراسات شمال إفريقية: جمع وترجمة لبحوث ذات أبعاد تاريخية واجتماعية ولغوية، ترجمة أحمد بومزقو، أعدها للنشر موحمد ؤمادي، سلسلة دراسات –1، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، ط1، 2008، ص121.

(19) الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1968، ج 5، صص296–297.

إلى اليوم. [20] كما يقول فرحات الجعبيري عنه: "كان هذا الجبل المعقل الرئيس للإباضية في ليبيا". [21]وهو ما يؤكّده موتيلنسكي:

"Le Djebel Nefousa, plein de souvenirs vénérés et de pieuse légendes, est encore considéré par nos Beni-Mzab comme une région sainte ; il est toujours pour eux le fort de l'abadhisme en Afrique".[22]

إنّ قيمة جبل نفوسة وارتباطه بالإباضيّة لم تكن اعتباطيّة وإنّما قامت جملة هذه الشهادات حوله لما عرف به أهله من توق نحو العلم والمعرفة والتقوى والورع والالتزام.

يقول حسين مؤنس متحدّثا عن ليبيا: "... ولكنّ السكان كانوا على الجملة قليلين، وإن كانوا نشيطين لهم أثر واضح في مجرى الحوادث، وخاصّة الإباضيين منهم، وكان مركزهم الكبير جبل نفوسة، وكانوا يعمّرون المناطق الممتدّة من جبل نفوسة إلى المغرب الأوسط الذي قامت فيه دولة الرستميين الخارجية الإباضيّة. وقد اشتهر أهل هذه النواحي كلّها بالعلم والصلاح والفضيلة والغنى النسبي واستقلال الشخصيّة." [23]

كان جبل نفوسة أوّل المعاقل التي تحدّث عنها لوّاب بن سلاّم في كتابه "بدء الإسلام وشرائع الدين" في تعلّم القرآن واتّصال أهله بالعرب الوافدين المحمّلين بالعلم والمعرفة، فيقول: "وأخبرني أبو صالح النّفوسيّ بتوزر قبل سنة أربعين ومائتين أنّ أوّل من علّم القرآن بجبل نفوسة عمر بن يمكتن بمنزل يقال له افاطمان، ويقال أنّ عمر بن يمكتن إنّما تعلّم القرآن من طريق مغمداس يتلقّى فيها من الرّفاق العرب من المشرق فيكتب عنهم لوحه من القرآن وينصرف فإذا درس ما كتب وتعلّم رجع إلى المحجّة فيكتب من المارّة الرّفاق لوحه وينصرف، فأدّى به ذلك التّعلّم للعلم والقرآن، وهو أصغر ولد دَمْوا الحمدانية بنت درجوا امرأة يمكتن وذلك لحرصه على العلم والقرآن في أوّل الإسلام قلّ المعلّمون في البلدان."[24]

لقد بيّن ابن سلاّم طرق التعلّم في منطقة جبل نفوسة والبوادي التابعة لها خلال القرن الأوّل والنّصف الأوّل

(20) ليفيتسكي (تادايوش): تسمية شيوخ جبل نفوسة وقراهم: دراسة لُسُنية في الأنوميا والطبونوميا الأمازيغية، ترجمة عبد الله ژارو، أعده للنشر وقدّم له محمد ؤمادي، منشورات مؤسسة توالت الثقافية سلسلة الأبحاث التاريخية-1، ط2، 2013، ص9.

(21) الجعبيري (فرحات بن علي): العلاقة بين إباضية المغرب وإباضية البصرة وعمان من القرن الأوّل إلى القرن الحادي عشر الهجري/8-17م، دار سيراس للنشر، تونس، 2005، ص 68.

(22) A. De Calassanti – Motylinski : Le Djebal Nefousa : Transcription, traduction française et notes avec une étude grammaticale, Paris, Ernest Leroux, Editeur, 1898, p5.

(23)مؤنس (حسين): تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1412هـ/1992م، مج 2، ج3، ص405.

(24) ابن سلاّم (لوّاب): بدء الإسلام وشرائع الدّين، تحقيق الشيخ سالم بن يعقوب وڤيرنز شڤارتس WERNER SCHWARTZ، بيروت، دار صادر ودار النشر فرانز شتايز بڤيسبادن، 1986. ص 126.

من القرن الثّاني للهجرة، فقد اعتمد عمر بن يمكتن طريقة التعرّض للقوافل التّجارية التي كانت تمرّ بجبل نفوسة لتعلّم القرآن وحفظه.

من ثمّة اكتسب الجبل مكانة مهمّة في العلم والتعليم، فصار بمثابة "العاصمة الإيمانيّة للوجود الإباضي في بلاد المغرب الإسلامي"[25]، تشدّ إليه الرّحال للاتصال بعلمائه ومشايخه أين عقدت المجالس العلمية وأسست المدارس، فصارت الدّراسة في جبل نفوسة والجلوس إلى مشايخ العلم إجازة علميّة عالية لكلّ من يحوزها ويوفق في نيلها. [26]

وبالرجوع إلى ما دوّن في تراجم الإباضية ومشايخه على مدى عشرة قرون من القرن الأول إلى القرن العاشر للهجرة (من 7 إلى 16للميلاد) نجد منطقة جبل نفوسة قد حظيت بنصيب وافر في كتاب "السير" للوسياني [27]، الذي جعل أول فصوله في "روايات أهل جبل نفوسة" ثم جربة وبلاد الجريد بالجنوب التّونسي وأريغ. على خلاف كتاب البغطوري الذي جعل كلّ مؤلّفه في "سير نفوسة"[28] وخصّصه صاحبه لسيرة الإباضيّين من جبل نفوسة ونواحيها، كما وردت له أسماء مختلفة مثل "سير أهل نفوسة"، و"سير المشايخ"، و"سير الجبل"، و"سير نفوسة"، أو "سيرة مشايخ نفوسة"، فمثّل الكتاب وثيقة مهمّة ونفيسة في التعريف بعلماء الجبل وخاصّة بنسائه اللاتي نبغن في الأوساط الإباضية في بلاد المغرب.

صورة الجبل عند الشّماخي في كتاب السير

إنّ أبا العباس أحمد بن سعيد الشمّاخي لم يكن بمنآى عن التحوّل الذي حصل في ذهنيّة مؤلّفي السير الإباضيّة وطبقاتها بعد سقوط الدّولة الرستمية، والذي كان بدوره من بين الدوافع التي كانت وراء تأليفهم لمصنّفاتهم الترجمية.

فالمتأمّل في كتاب السير، والذي اخترنا أن نخصّه بالدراسة في هذا البحث، يجد أنّ فكر صاحبه قد مرّ بطورين، أو أنّ الكتاب يوثّق سيرة الإباضيّين المغاربة خلال مرحلتين تختلف الأولى عن الثانية اختلافا جذريا، كما تباين فيهما مسار التأليف ومنهجه.

(25) البرّادي (أبو القاسم بن إبراهيم): الجواهر المنتقاة فيما أخلّ به كتاب الطّبقات، صحّحه وقدّم له وعلّق عليه أحمد بن سعود السيابي، دار الحكمة، لندن، ط1، 2014، ص 4.

(26) المرجع نفسه، ص4.

(27) الوسياني (أبو الرّبيع سليمان بن عبد السّلام): كتاب السّير، (تحقيق عمر بن لقمان حمو سليمان بوعصبانة)، مسقط، وزارة التراث والثّقافة، 2009.

(28) البغطوري (مقرين بن محمد): سير نفوسة، (تحقيق توفيق عيّاد الشقروني)، مؤسّسة توالت الثّقافية على موقعا الالكتروني (http///www.tawalt.com)، 2009.

الرّستميون وجبل نفوسة:

يعتبر كتاب "السير" لأبي العباس أحمد بن سعيد الشّماخي من أكثر المصادر الإباضيّة التي قدّمت معلومات وأخبار هامّة حول منطقة الجبل وعلاقتها بالدولة الرستمية بتيهرت، وقد تجلّت هذه العلاقات في مناسبات عديدة لخّصها عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم بقوله: "إنّما قام هذا الدّين بسيوف نفوسة وأموال مزاتة"[29].

ولعلّ هذا يعود إلى الدور الذي لعبته منطقة جبل نفوسة بعلمائها ومشايخها في حفاظ الرستميين على سلطانهم على إباضية بلاد المغرب، وهو ما أشاد به الشماخي في قوله: "وذلك أنّ نفوسة بلغت في العلم والتقى والعدل والورع مبلغا عظيما، يكاد حاكيه كاذبا، وهابهم من بالمشرق والمغرب"[30].

ولعلّ هذا كان وراء إرسال عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم "إلى جبل نفوسة وإلى عامله بها أن يمدّه بجيش يتضمن شجعانا وفرسانا عارفين بأبواب الحرب ومبارزة الأبطال، وعلماء بفنون التفسير، والردّ على المخالفين، والحلال والحرام، وقيل مائة بطل للمبارزة، ومائة مفسّر، ومائة متكلّم عارف، بفنون الردّ ومائة عالم بفنون الحلال والحرام"[31]، لمحاربة الواصلية، ومجابهة مخاطرها سواء السياسية أو العقدية.

إنّ السّجال العقدي بين الإباضية والواصليّة كان فرصة لاكتشاف قيمة جبل نفوسة وفضله على الرّستميّين في تيهرت وعلى استمرار إمامتهم للإباضية، فقد مدّ الجبل عبد الوهاب –وحسب ما ذكره الشّمّاخي– بأربعة أنفار تعادل قوّة كلّ واحد منهم قوّة مائة، وهم: أبو المنيب محمد بن يانس، ومهدي الويغوي، وأيوب بن العبّاس، وأبو الحسن الأبدلاني، وبوجودهم توفرت لعبد الوهاب القوّة المادية والعسكرية والقوّة الفكرية والعلمية وقوة العقيدة للردّ على المعتزلة ومحاربتهم، فتكفّل أيوب بن العبّاس بالمبارزة، ومحمد بن يانس بأمر تفسير القرآن، ومهدي الويغوي بعلم الكلام والمناظرة، وأبو الحسن بمسائل الحلال والحرام، حتى تعجّب عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم من شدّة علمهم وورعهم، فقال لهم "هل تركتم في الجبل خيرا منهم؟ فقال مهدي: تركنا من هو خير منّا: أبا عبيدة الجناوني"[32].

يبدو أنّ عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم كان على يقين بدور جبل نفوسة في حفاظ الرستميّين على سلطانهم في بلاد المغرب وإلاّ لما استقرّ بها سبع سنوات عندما عزم على المسير إلى الحجّ، يقول الشّمّاخي: "ثمّ تحوّل إلى جبل نفوسة عازما على الحجّ، فمنعوه خوفا من المسودّة أن يمسكوه، (...) فأرسل رجلا نفوسيّا

(29) الشماخي: السير، ج2، ص 341.

(30) الشماخي: السير، ج2، ص 423.

(31) المصدر نفسه، ج2، ص 282.

(32) م. ن، ج2، ص 300.

من أهل تمزدا إلى الرّبيع بن حبيب (...) فأقام بجبل نفوسة في تلك النوبة سبعة أعوام، وكانوا يقرؤون عليه مسائل الصلاة..." [33]

وأمام هذا الخبر الذي يرويه الشماخي نجد أنفسنا مدفوعين إلى طرح تساؤلات منها:

هل فعلا كان جبل نفوسة مجرد محطة توقف فيها عبد الوهاب وهو قاصد الحجّ؟ أم أنّ أصل رحلته كانت باتجاهه أصلا، سعيا منه للحفاظ على سلطان الرستميين فيه؟

وكيف لعبد الوهاب أن يستقرّ سبع سنوات بجبل نفوسة لو لم يكن الأمر يقتضي ذلك؟

يبدو أنّ إقامة عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم في الجبل كانت لها غايات سياسية، منها احتواء القبائل البربرية المكونة لسكانه وتقليص حدّة العصبيّة القبلية فيه بعد أن اختلطت الأنساب فيه وتزوج الفرس ومن كان مع الإمام إماء أهل زمّور، فلمّا أرادوا الرّجوع والانتقال إلى تيهرت حملوا أولادهم منها"[34].

إنّ ما يستوجب الجزم به هو قيمة جبل نفوسة عند الرّستميين وتحديدا عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم والتي كانت وراء بقاء الإمام عبد الوهاب سبع سنوات في جبل نفوسة، أمّا الخلاف فيتمحور حول الأسباب التي كانت وراء ذلك.

وجدنا رواية يذكرها أحمد بن سهل الرازي، قد تبرّر حرص عبد الوهاب على استقرار حكم الرستميين في جبل نفوسة وذلك مع المخاطر التي ظهرت مع دعوة إدريس بن عبد الله الذي "ركب (...) وسبق إلى جبال نفوسة وهي قبيلة من قبائل البربر الخوارج (...) وكان إدريس قد دعا أهل نفوسة إلى حقّه وبيّن لهم خطأ ما هم عليه من البراءة من علي بن أبي طالب، فاستجاب له منهم خلق وأبى ذلك أكثرهم"[35]، علما وأنّ إدريس أرسل رسالة (أوردها الرازي في كتابه) إلى قبائل البربر في منطقة الشلف وتاهرت وزناتة وصنهاجة ولواتة يدعوهم فيها إلى نصرته، فأجابوه ووعدوه بالنصر، وهو ما قد يكون وراء تحوّل عبد الوهاب إلى جبل نفوسة تصديا منه لدعوة إدريس التي بدأت تجد صدى لها في أهم المعاقل الإباضيّة وهو "جبل نفوسة"، فكان بينهما قتال انتهى بهزيمة إدريس. يقول الرازي: "فعزم على ذلك فعاجله عبد الوهاب بن رستم فقاتله مدّة طويلة وتفانى بينهم ألوف من النّاس، فكانت الهزيمة متى وقعت بعبد الوهاب ثاب إليه المدد لأنّ البلد بلده وأهل ديانته، ومتى نزلت بإدريس

(33) م. ن، ج2، ص 287.

(34) الشماخي: السير، ج2، ص 287

(35) الرازي (أحمد بن سهل): أخبار فخّ وخبر يحيى بن عبد الله وأخيه إدريس بن عبد الله (انتشار الحركة الزيدية في اليمن والمغرب والديلم)، دراسة وتحقيق ماهر جرّار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1995، صص 173-174.

لم يجد غير أصحابه المنهزمين يعاود بهم الحرب"[36].

إلا أنّنا لم نجد ما يؤكّد هذه الرواية أو ينفيها خاصّة وأنّ ماهر جرّار محقّق كتاب "أخبار فخّ وخبر يحيى بن عبد الله وأخيه إدريس بن عبد الله" يستغرب هذه المعلومات الواردة في المخطوطة ويتساءل عن مدى صحّتها فيقول: "وللدارس أن يتساءل عن مدى دقّة هذه المعلومات التي تقدّمها المخطوطة، فلماذا يتّجه إدريس للحلول بين جماعة الإباضية في جبل نفوسة لبثّ الدعوة بينهم واستمالتهم إلى جانبهم رغم عدائهم "الإيديولوجي المعروف؟"[37]

كما حرص أفلح بن عبد الوهاب على جبل نفوسة فتمّ القضاء على حركة خلف التي قامت بين النفوسيين وإرجاع المنطقة إلى حكم الرستميين، وذلك خوفا من ظهور جماعة تعارض الإباضية الوهبية المساندة للرستميين وقد تدين إضافة إلى العقيدة الإباضيّة بقوة الانتماء العرقي للبربرية الذي تمثّله القبائل والبطون المكوّنة لجبل نفوسة. فلاشكّ أنّ الحركة التي قادها خلف بن السمح في منطقة طرابلس وجبل نفوسة إذا توفرت لها عصبية مضاعفة (مذهبية وعرقية) مع القوّة المادية والعسكرية التي يتميز بها النفوسيون، فإنّها ستسعى إلى الخروج عن الإباضيّة الوهبية والانفتراق عنها ومن ثمة الاستقلال عن السلطة المركزية في تيهرت.

يعود أبو العباس أحمد بن سعيد الشّماخي في سيره على الأحداث المميّزة لتاريخ الإباضيّة وصراعاتهم مع القوى الموجودة بلاد المغرب، والتي اتّصل الكثير منها بمنطقة جبل نفوسة، فخصّص جزءا من تراجمه لأعلام المذهب الذين شاركوا في واقعة مانوا"[38]، والتي فسّر وقوعها وبرّره بما بلغته نفوسة من قوّة في العلم والتقوى والعدل والورع، فمثلت خطرا خشيه الحكام المشارقة وولاتهم المغاربة. يقول الشمّاخي: "كان المسلمون من أهل جبل نفوسة أكثر الناس حجّا، وأزكاهم نهجا، وإنّهم يحجّون بالنساء والذريّة"[39]، كما يقول: "وكان أهل الجبل لا يقدّمون للصلاة إلاّ التقيّ، الأسنّ العالم، اقتداء بالسنّة"[40].

ولعلّ هذا يدفعنا إلى الجزم بأنّ سبب إعلان الأغالبة الحرب على النفوسيين لا يخرج عن الدور الذي لعبه الجبل في استمرار الرستميين، وهو ما يؤكّده أبو زكرياء الورجلاني في كتابه "كتاب السيرة وأخبار الأئمة" حين قال: "حدّث غير واحد من أصحابنا أنّ نفوسة بلغت في التأييد لسلطة الرستميين بأرض تيهرت مبلغا عظيما

(36) المرجع نفسه، ص 181.

(37) المرجع نفسه، ص 63.

(38) الشماخي: السير، ج2، ص 423.

(39) المصدر نفسه ج2، ص 370.

(40) م. ن، ج2، ص 381.

لم يبلغه غيرهم من مغربنا هذا"[41]، فاستعمل الوارجلاني الفعل "بلغ" مع الاسم المشتقّ منه ثلاث مرات في سطر واحد مع النعت "عظيما" معبّرا به عن فضل جبل نفوسة على دولة الرستميين، وهو ما كان وراء توجّه أنظار السلطة ببلاد المغرب نحوها، كما يضيف الوارجلاني قائلا: "فاتّصلت أخبار نفوسة بمن كان بالمشرق من الأئمّة المسودة يدرس لهم الكتب من كان بالقيروان ومدينة طرابلس ويخبرونهم أنّ قيام دولة الفرس بتيهرت بهم كان. وكان ذلك على عهد المتوكل من بني العبّاس ببغداد"[42].

وقد مُنِي النفوسيون بخسائر فادحة في هذه الواقعة "فمات اثنا عشر ألفا، ومن العلماء أربعمائة، وحمل منهم أسرا ثمانين عالما"[43]، ومنها بدأ انهيار الدّولة الرستمية وبداية اضمحلال الحلم الإباضي في مواصلة السيطرة على المعاقل الإباضيّة في بلاد المغرب.

أ- الشماخي والعودة إلى الجذور

بدخول الفاطميّين بلاد المغرب وقضائهم على الدولة الرستمية، دخلت الإباضيّة طورا جديدا، اقتضى تحوّلات مجالية جديدة، وقد تجلت هذه التحوّلات في الذهنية المتحكّمة في تأليف السير والطبقات، على غرار أبي العبّاس أحمد بن سعيد الشمّاخي، الذي أقصى في سيره تيهرت، وحوّل أنظاره نحو موطنه الأصلي جبل نفوسة، ثمّ جزيرة جربة، وبلاد الجريد بدرجة أقلّ. فركّز على الترجمة للعلماء والمشايخ الذين قتلوا في واقعة مانوا، كما خصّص فصلا قال عنه: "فصل أذكر فيه بعض أهل الكرامات: وتقدّم الأكثرون، وأكثرها في نفوسة فأطلبها في أخيارهم"[44]. كما خصّص فصلا في "كرامات جبل نفوسة"[45]، قائلا فيه: "وبالجملة، أنّ جبل نفوسة احتوى على الكرامات وعلى كثرة الصالحين والعلماء مالا يوجد في غيره. وذكر أنّ بعض الأزمنة، لا تحتاج فيه قرية إلى قرية للفتيا إلا أجناون، وويغوا، وتندميرت، لا تحتاج دار إلى دار. وقالوا: اجتمع في أجناون سبعون عالما في أيام أبي عبيدة عبد الحميد من أهل ولايته"[46].

رغم أنّ جبل نفوسة منطقة إباضية منذ ظهور المذهب الإباضي ببلاد المغرب مع مطلع القرن الثاني للهجرة، ولم ينقطع منها نشاط مشايخ المذهب، إلا أننا نلاحظ أنّ تركيز كتّاب السّير على أعلام المذهب فيه لم يكن

(41) الوارجلاّني (أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر): كتاب السّيرة وأخبار الأئمّة، (تحقيق عبد الرّحمان أيّوب)، تونس، الدّار التونسية للنشر، 1985. ص150.

(42) المرجع نفسه: ص150.

(43) الشماخي: السير، ج2، ص 425.

(44) الشماخي: السير، ج2، ص 724

(45) المصدر نفسه، ج2، ص 771.

(46) م.ن، ج.ن، ص 772.

بدافع التّعريف به وبدوره وإنّما كان لغاية إبراز دور الجبل في استعادة الوهبية لمكانتها به وبالمناطق المجاورة له (جبل نفوسة) مثل جادوا، وتندميرت، ودجّي، وتملوشايت، وابناين، واكراين، وتوغرمت، وتنفخست، واجطال، خاصّة أنّ الوهبية واجهت عددا من الفتراقات الداخلية التي فرّ أنصارها إلى جبل نفوسة وجزيرة جربة ونفطة وبلاد الجريد التونسي ومنطقة دقاش ودرجين وتوزر، ومنها سيتعزّز الوجود الوهبي في هذه المناطق بإيعاز من جبل نفوسة الذي غيّر بأعلامه ومشايخه ملامح الوجود الإباضي في بلاد المغرب منذ القرن الخامس للهجرة إلى اليوم.

أعلام مؤثرة من جبل نفوسة

مثّلت منطقة جبل نفوسة فضاء حاضنا لأعلام أثروا تأثيرا مباشرا في تاريخ إباضية بلاد المغرب حتى بعد سقوط الدولة الرستمية، ودخول الإباضية طور الكتمان في ظلّ المخاطر التي قد تحدق بهم من الدول التي حكمت المنطقة.

أبو مسور وأسرته:

هو أبو مسور يسجا بن يوجين اليراسني، من أصل بربري يرجع إلى قبيلة "يراسن" التي تمتدّ من تطاوين إلى جبل نفوسة، ويحمل اسمه "يسجا" معنى "استقام" أو "الأوّل"، لتتّفق كلّ المراجع التي اعتنت بشخصيته أنّه يحمل في سلوكه معنى اسمه نظرا لما عرف به من استقامة والتزام رغم ما عاناه من شظف العيش بموت والده، كما التحق "بحلقة الشيخ أبي زكرياء يحيى بن يونس السدراتي بشروس في جبل نفوسة، وكانت نفوسة آنذاك ملتقى العلماء وقبلة الطلاّب"[47] تزوّج من نفوسية وأنجب منها ابنه فصيل ثمّ رحل معها الى جربة [48].

تتكوّن أسرة أبي مسور من ستة أفراد وهم:

أبو صالح بكر بن قاسم اليهراسني.

(47) بابا عمّي (محمد بن موسى) وآخرون: معجم أعلام الإباضيّة، قسم المغرب الإسلامي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط2، 2000. ص 468.

(48) لمزيد التعرّف على سيرة أبي مسور راجع:

الدّرجيني (أبو العبّاس أحمد بن سعيد): طبقات المشايخ بالمغرب، (تحقيق إبراهيم طلاّي بمساعدة لجنة من الأساتذة)، سلطنة عمّان، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، ط3، 2016، صص157-158.أبو زكرياء: السّيرة ...، صص 239-240. معجم أعلام الإباضيّة، ج2، ص88.

* Tadeusz Lewicki : « Etudes ibāḍites nord-africaines : tasmiyat Šuyūḫ Ǧabal Nafūsa wa qurahum : liste anonyme des Šayḫs Ibāḍites et des localités du Ǧabal Nafūsa, (partie 1), Panstwowe wydawinictwo Naukowe warszawa, 1955, p35

أبو زكرياء فصيل بن أبي مسور.

أبو محمد ويسلان بن بكر بن قاسم.

– أبو يحيى زكرياء بن فصيل.

–أبو القاسم يونس بن فصيل.

لقد كانت لهم مهمّة إمامة الإباضية في جزيرة جربة على مدى القرنين الرابع والخامس للهجرة، واضطلعوا بأدوار مهمّة أثّرت في تاريخ الجزيرة، وتاريخ الوجود الوهبي بها، وهو ما اهتممنا به في بحثنا لنيل شهادة الماجستير بكلّة الآداب والفنون بمنوبة ضمن البحث الذي وسمناه بـــ "دور الأسرة المسورية بجزيرة جربة في القرنين الرابع والخامس للهجرة (10 و11 للميلاد)"

إنّ أهمّ ما يذكر عن أبي مسور دعوته للوهبية وسعيه إلى نشرها في جزيرة جربة التي كانت كلّها بين النكّار والخلفية، وقد كانت نفوسة العضد الذي ساهم في نصرة أبي مسور كما نصرته زواغة البادية ودمّر، ويذكر الشمّاخي في قوله: "وما استتموا مجلسهم إلا وكتاب ثالث من أهل نفوسة، وفيه ما في الأوّلين [زواغة البادية ودمّر] وزيادة: كسّنا غمد السيوف، ونَصل وهي مُصْلِتَة في أيدينا"[49].

كما استطاع أبو مسور أن يثبّت الوهبية في جزيرة جربة، وأن يضمن لهم الاستمرار والبقاء بفضل ما ارتآه من بناء الجامع الكبير والذي أتمّ بناءه ابنه فصيل ليكون أهم المدارس العلمية التي احتضنت حلقات العزابة، فضلا عن إنشائه السوق التي تسمّى حاليا بـ "حومة السوق" ليسهل على أهل الجزيرة عملياتهم التجارية وأمّن لهم فيه ما قد يحتاجونه من البضائع والمواد الاستهلاكية، كما أمّن به لنفسه قوة السلطة والنفوذ على الاقتصاد فيها.

لقد سار بقية أفراد الأسرة المسورية على سيرة أبي مسور في العلم والحرص على المتعلّمين، والعمل على حماية أهل الجزيرة من الإباضية الوهبية، فكان أبو صالح بكر بن قاسم اليهراسني "أنجب من طالع ودرس وأخذ في إحياء ما عفا واندرس" [50].

أمّا فصيل بن أبي مسور فهو "الطّيب موردا ومرعى، الكريم أصلا وفرعا"[51]، اتّصلت به نشأة أهمّ تنظيم عرفته إباضيّة بلاد المغرب في شقّها الوهبيّ وهو "نظام العزابة" هذا النظام الذي كان فيه جبل نفوسة منشأ مؤسّسيْه وهما:

– فصيل بن أبي مسور.

(49) الشماخي: السير، ج2، ص 522.

(50) المصدر نفسه، ج2، ص 547.

(51) م.ن، ج ن، ص 551.

– وأبو عبد الله محمد بن أبي بكر الفرسطائي.

ما جعل الدكتور فرحات الجعبيري يطلق عليه اسم: "السيرة المسورية البكرية"[52]

أ– السيرة المسورية البكرية أو نظام العزّابة

نبعت فكرة تأسيس نظام العزابة من أبي زكرياء فصيل بن أبي مسور وهو القائم بإمامة الوهبية في جربة منذ أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس للهجرة (10 و 11 للميلاد) بعد وفاة والده وبعد أن منيت الوهبية بهزيمة ضد الفاطميّين مع أبي خزر يغلى بن زلتاف وأبي نوح سعيد بن زنغيل، حينها كان لابدّ للإباضية من حلّ جديد يتماشى مع الأوضاع الجديدة والحفاظ على الوجود الإباضي الوهبي في المنطقة، فكان ما اصطلح على تسميته "نظام العزابة" البديل الذي سيحقق ذلك، باعتباره نظاما خاصّا بالإباضيّة الوهبية. فيقول الشّمّاخي: "ذكر أبو عمرو أنّ جماعة عزابة اجتازوا بطرّة، فأذاهم مقدّمها، اسمه علي –قالوا له: احذر عقوق الوهبية!"[53] فقد أرسل فصيل بن أبي مسور ابنيه زكرياء ويونس وابن أخته أبا بكر بن يحيى إلى أبي عبد الله محمد بن بكر. عُرف نظام العزابة بمؤسّسه أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي، والذي كانت ولادته حوالي أواخر القرن الرابع للهجرة (10م)، وأصله من فرسطا من جبل نفوسة، وهو "الطود الذي تضاءلت دونه الأطواد، والبحر الذي لا تقاس به الثّماد"[54]، تلقّى العلم على أبي نوح سعيد بن زنغيل وأبي زكرياء فصيل بن أبي مسور، ما جعله يتوسم فيه خيرا.

تفيض كتب السّير الإباضيّة بسيرة هذا الرجل وتنقلاته في سبيل العلم من الحامة إلى القيروان إلى قصطالية أين التقى بالوفد القادم إليه من جربة والمرسل من طرف شيخه فصيل بن أبي مسور، فكان أوّل من رتّب حلقة العزابة بمسجد المُنْيَة، بعد أن ألحوا عليه في رغبتهم في طلب العلم منه، فقبل منهم واشترط أن يمهلوه مدة أربعة أشهر يختلي فيها بنفسه ويستخير الله في الأمر، ويستشير فيه أصحابه، الذين باركوا رأيه ووافقوه عليه[55].إنّ نظام الحلقة التي أنشأت بطلب من فصيل بن أبي مسور وإشراف من أبي عبد الله محمد بن بكر كان ضرورة فرضها الوضع السياسي في بلاد المغرب، والذي أوجب على الوهبية الالتزام بالكتمان في ظلّ نظام خاصّ لحفظ الكيان، ولعلّ هذا ما جعل جميع المصنّفات الإباضيّة القديمة والحديثة والمعاصرة لا تتجاوز دون ذكر الدور الذي لعبه فصيل بن أبي مسور في الدفع لتأسيس نظام العزابة، وهو إمام الوهبية في جربة خلفا

(52) الجعبيري (فرحات): نظام العزّابة عند الإباضيّة الوهبيّة في جربة، المطبعة الرسمية التونسية، ط2، 2016، ص41.

(53) الشّمّاخي: كتاب السّير، ج2، ص 603.

(54) المصدر نفسه: ج2، ص 570.

(55) فرحات الجعبيري: نظام العزابة...، ص41.

لوالده، فكان هذا النظام نتاج "الشجرتين الطّيبتين المسورية البكرية"[56]، كما كان دليلا على المهمّة المنوطة بعهدة أولياء الأمور والأئمة القائمين بشؤون الجماعة حفظا للمال والأبدان، وتجنبا للمخاطر، وذلك بالعمل على خلق بدائل وتنظيمات ملائمة حسب متطلّبات الوضع الداخلي والخارجي.

وبذلك استطاع أبو عبد الله محمد بن بكر ترتيب الحلقة مع طلبته بـ"تِينِيسْلي" التي كانت بمثابة نقطة الانطلاق في عهد جديد تعيشه الوهبية في كتمانها في بلاد المغرب بفضل هذا الرجل النفوسيّ الأصل والتكوين، فرسّخ من خلاله لآداب وقوانين وتنظيمات داخلية وخارجية، شكلية وجوهرية، جعلت منه نظاما سياسيا وحضاريا استمرّ لسنوات طويلة ليكون نظاما قائما بأمور وهبية جربة وجبل نفوسة، وإلى اليوم في وادي ميزاب.

(56) الدّرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، ص 214.

الخاتمة:

لقد رمنا بهذه الورقة العلمية تتبّع المكانة التي كانت لمنطقة جبل نفوسة في تاريخ إباضيّة بلاد المغرب على مدى عشرة قرون أي من القرن الأوّل إلى القرن العاشر للهجرة (من 7 إلى 16 للميلاد) كما بيّنها أبو العبّاس أحمد بن سعيد الشمّاخي.

– تأكّد لنا أنّ جبل نفوسة مجال حدّد علماؤه ومشايخه من الإباضيّة ملامح وجود الإباضية الوهبية في بلاد المغرب قبل سقوط دولة الرستميين وبعده.

– حظي علماء نفوسة بحيّز كبير في كتب السّير الإباضيّة وطبقاتها وتحديدا كتاب "السير" للشمّاخي الذي اعتمدناه مصدرا أساسيا في هذا البحث، فقد انتظمت فيه التراجم لعلماء الإباضيّة وفق منطق التأكيد على توفّر عناصر القوّة العلميّة والعسكريّة، وكان جبل نفوسة أوّل المناطق التي جمع علماؤه ومشايخه بين القوّة العلمية وقوّة التقوى والورع مع القوّة العسكرية.

– زوّد جبل نفوسة الدولة الرّستمية بالعارفين في علم الكلام والعقيدة والقتال لنصرة عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم ضدّ المعتزلة أوّلا والأدارسة ثانيا، كما كان معين كتب التراجم التي اعتنت بأعلام الإباضية المغاربة حتى خصّص البغطوري كتابه في "سير نفوسة".

– إنّ ما يمكن الجزم به أنّ جبل نفوسة أوّل المعاقل الإباضيّة التي لم تشهد تراجعا في مدى حرصها على الإباضيّة وحفاظها عليه، بل على العكس من ذلك واصل النفوسيون حتى بعد سقوط الدولة الرستميّة ضخّ دماء جديدة للمذهب في بلاد المغرب من خلال تميّز أعلام كان لهم الفضل في نشأة إمامات في جزيرة جربة مع أبي مسور وبقية أسرته، فضلا عن نشأة نظام العزابة مع عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي.

– مثّل نظام العزابة صمّام أمان إباضيّة بلاد المغرب باعتباره نظاما يتلاءم مع طبيعة الأوضاع السياسية والاجتماعية في بلاد المغرب التي فرضها طور الدخول في مسلك الكتمان بعد قضاء الفاطميّين على بني رستم بتيهرت.

– لا تزال منطقة جبل نفوسة تحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث للكشف عن قيمة رصيدها البشري والجغرافي وعن الأسباب العميقة التي حالت دون قيام هيكل سياسيّ مستقلّ لإباضية الجبل بزعامة نفوسية.

قائمة المصادر والمراجع (دون اعتبار ابن وأبو)

المصدر:

1– الشماخي (أبو العبّاس أحمد بن أبي عثمان سعيد بن عبد الواحد): كتاب السّير، (تحقيق محمد حسن)، ليبيا، دار المدار الإسلامي، 2009.

المراجع العربية:

1-لبرّادي (أبو القاسم بن إبراهيم): الجواهر المنتقاة فيما أخلّ به كتاب الطّبقات، صحّحه وقدّم له وعلّق عليه أحمد بن سعود السيابي، دار الحكمة، لندن، ط1، 2014.

2-البغطوري (مقرين بن محمد): سير نفوسة، (تحقيق توفيق عيّاد الشقروني)، مؤسّسة توالت الثّقافية على موقعا الالكتروني (http///www.tawalt.com)، 2009.

3-الجعبيري (فرحات):

-العلاقة بين إباضية المغرب وإباضية البصرة وعمان من القرن الأوّل إلى القرن الحادي عشر الهجري/8-17م، دار سيراس للنشر، تونس، 2005.

-نظام العزّابة عند الإباضيّة الوهبيّة في جربة، المطبعة الرسمية التونسية، ط2، 2016.

4-ابن خلدون (عبد الرحمان): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، 1959.

5-دبيش (لطفي): الإنسان والمكان في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة: قراءة في نصوص الجغرافيّين والرّحّالين والمسالكيّين العرب إلى القرن الخامس الهجري، منشورات كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس: السلسلة 8، جامعة تونس، 2011.

6-الدّرجيني (أبو العبّاس أحمد بن سعيد): طبقات المشايخ بالمغرب، (تحقيق إبراهيم طلاّي بمساعدة لجنة من الأساتذة)، سلطنة عمّان، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، ط3، 2016.

7-الرازي (أحمد بن سهل): أخبار فخّ وخبر يحيى بن عبد الله وأخيه إدريس بن عبد الله (انتشار الحركة الزيدية في اليمن والمغرب والديلم)، دراسة وتحقيق ماهر جرّار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1995.

8-سعد زغلول (عبد الحميد): تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب)، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1979.

ابن سلاّم (لوّاب): بدء الإسلام وشرائع الدّين، تحقيق الشيخ سالم بن يعقوب وڤيرنز شڤارتس WERNER SCHWARTZ، بيروت، دار صادر ودار النشر فرانز شتايز بڤيسبادن، 1986.

9-مؤنس (حسين): تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1412هـ/1992م.

10-المزهودي (مسعود): جبل نفوسة في العصر الإسلامي الوسيط (21-442هـ) (642-1053م)، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، ط1، 1431هـ/2010م.

11-المقدسي (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق دي خويه، طبعة ليدن، 1906.

12-الوارجلاّني (أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر): كتاب السّيرة وأخبار الأئمّة، (تحقيق عبد الرّحمان أيّوب)، تونس، الدّار التونسية للنشر، 1985.

13-الوسياني (أبو الرّبيع سليمان بن عبد السّلام): كتاب السّير، (تحقيق عمر بن لقمان حمو سليمان بوعصبانة)، مسقط، وزارة التراث والثّقافة، 2009.

المراجع المعرّبة:

1-ديبوا (جون): جغرافيا جبل نفوسة: دراسة ميدانية في الجغرافيا الطبيعية والبشرية، ترجمة عبد الله ژارو، أعده للنشر محمد ؤمادي، منشورات مؤسسة توالت الثقافية سلسلة الأبحاث التاريخية، الرباط، 2006.

2-ليفيتسكي (تادايوش): دراسات شمال إفريقية: جمع وترجمة لبحوث ذات أبعاد تاريخية واجتماعية ولغوية، ترجمة أحمد بومزقو، أعدها للنشر موحمد ؤمادي، سلسلة دراسات -1، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، ط1، 2008.

3-ليفيتسكي (تادايوش): تسمية شيوخ جبل نفوسة وقراهم: دراسة لُسُنية في الأنوميا والطبونوميا الأمازيغية، ترجمة عبد الله ژارو، أعده للنشر وقدّم له محمد ؤمادي، منشورات مؤسسة توالت الثقافية سلسلة الأبحاث التاريخية-1، ط2، 2013.

4-نيتشه (فريديريك): هكذا تكلّم زرادشت: كتاب للجميع ولغير أحد، ترجمه عن الألمانية علي مصباح، منشورات الجمل، كولونيا، ط1، 2007.

المقالات:

1-ذنون طه (عبد الواحد): *"دور مدينة طرابلس في الفتح العربي الإسلامي في شمال إفريقيا"*، دور طرابلس الغرب في نشر الثقافة العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية، دت، (11-28).

2-بو شامة (أحمد) وابن علي (طاهر): *"جبل سوفجج بين النصوص المصدرية الإباضيّة والمعطيات الميدانية: قراءة تاريخي-طوبونيمية"*، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، مجلد 15، العدد 2 (2022).

3-الفهري (عبد الحميد): *"الجبل في جدليّة المقدّس والمدنّس"*، أعمال الندوة الدوليّة (4-5-6 مارس 2004)، المجال وهوية ببلاد المغرب، جمع وتقديم عبد الواحد المكني، جامعة صفاقس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، قسم التاريخ، الندوة الدولية 4، 2004.

المراجع العامّة:

1-بابا عمّي (محمد بن موسى) وآخرون: معجم أعلام الإباضيّة، قسم المغرب الإسلامي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط2، 2000.

2-الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1968.

المراجع الأجنبية:

1- A. De Calassanti - Motylinski : « Le Djebal Nefousa : Transcription, traduction française et notes avec une étude grammaticale », Paris, Ernest Leroux, Editeur, 1898.

2- Tadeusz Lewicki : « Etudes ibādites nord-africaines : tasmiyat Šuyūẖ Ğabal Nafūsa wa qurahum : liste anonyme des Šayẖs Ibādites et des localités du Ğabal Nafūsa, (partie 1), Panstwowe wydawinictwo Naukowe warszawa, 1955.